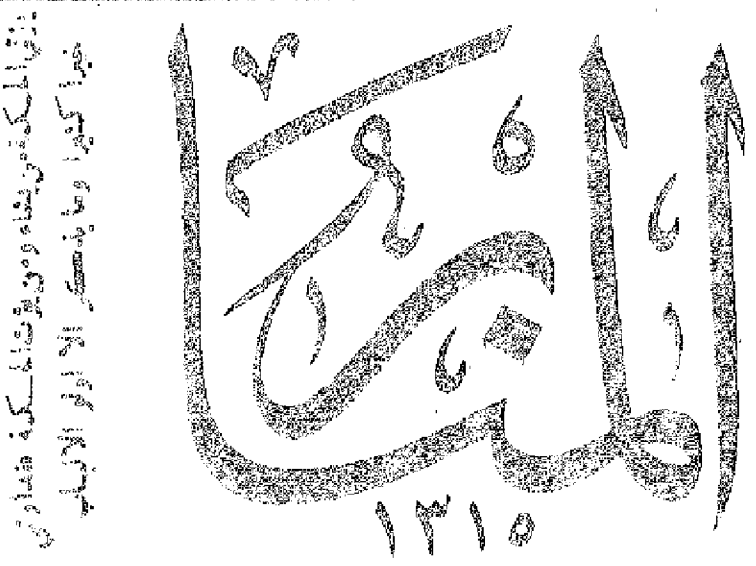

﴿ قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق ﴾

﴿ مصر ٢٠ المحرم ١٣٣١ه ق ١٩ الشتاء الاول ١٢٩١ه ش ٨ يناير ١٩١٣م ﴾

فاتحة السنة السادسة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه ، وبعد فقد جرت عادتنا ان نشير في فواتح سني المنار ، الى شيء من تاريخه أو تاريخ الإصلاح ، أو حال بيهه في عالم الاسلام ، ونقول الآن على رأس السنة السادسة عشرة ان صوت الاصلاح الديني قد علا كل صوت في الاقطار الاسلامية التي بلغتها دعوته ، وهزتها صيحته ، فقفقت دونه أصوات الخشوية الجامدين ، والدجاجلة المخرفين ، وقد خذل الله بيروت في العام الماضي أشدهم إفكاً

وتحريفا ، فيما يسميه نظما وتأليفا ، خذلته الخاصة ، ولم تنصره العامة ، وعورض مايفتريه من الرؤى والاحلام ، بشيوع خبر رؤيين راهما بعض الصالحين من الحجاج ، فقد حدثني الثقة المتفق على توثيقه في بيروت ، قال : لما عاد والدي من الحجاز علم حجه جاء (الشيخ فلان) للسلام عليه وكان يعد من أصدقائه واقبل بلهف ودهشة ليهنئه ، فصاح به والدي ياشيخ فلان — وذكر اسمه — ان النبي صلى الله عليه وسلم غير راض عنك ، فقد رأيته عند زيارته في المدينة المنورة في الرؤيا وأمرني أن أبلغك انه غير راض عنك . وأما الرؤيا الأخرى فقد رويت لي عن رجل من الحجاج أعطاه ذلك الدجال نسخا من كتبه ليوزعها في المدينة المنورة فرأى النبي (ص) في نومه قبل دخول المدينة بليلة واحدة يقول له ان هذه الكتب غير مقبولة . فلما استيقظ ألقى تلك الكتب أو دفنها في جانب الطريق . فمثل هاتين الرؤيين ، من دينك الحاجين الصالحين ، نقض مايدعيه ذلك الدجال من الرؤى التي هو متهم فيها بتعظيم شأن نفسه ، والتمهيد لدعوى الولاية له ولولده ، وتحقير من اتخذهم أعداء له ، لأنهم يغيرون عقول الأمة حتى لاتغتر بمثله

هذا إيعاز الى مبادئ عاقبة دجال القطر السوري المجاهر بمعاداة الاصلاح وأهله ، ولا نكبر شأنه بالرد عليه أو التصريح باسمه ، وقد خفت أيضا صوت دجال (جاوه) وظهر جهله ، وما أبقى عليه تكريم حكومة هولندة بل نسبه وسنه ، ودجال تونس المقيم ، ممدود عند عقلاء بلده من المجاذيب أو المجانين ، ولو كان في تونس حرية لحزب الاصلاح ، كالحرية الشاملة لأهل الجمود والفساد ، لرأى العالم الاسلامي من تونس ما لم يروه من سائر الاقطار ، وأما دجالها المتقلب في البلاد ، كتقلبه في الآراء

والافتخار ، فهو يتتبع مواقع الصيت والاشتهار ، ويتأيّا مساقط الدرهم والدينار ، فيدور مع من يملك ذلك حيثما دار ، حتى انه أفتى بجواز بناء الكنائس للروم والبلغار ، والانفاق على ذلك من بيت المال ، فنال الحظوى بمثل هذه الفتوى ، عند زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، واصطنعوه لكل مايبغون من الخداع الديني . وقد خذلهم الله ولم يعتبر المسكين ، (وأملي لهم ان كيدي متين)

هذه حال المجاهرين بمقاومة الاصلاح الديني وأهله ، لا صوت لأحد منهم يسمع ، ولا رأي لهم يتبع ، وانما يغترون بكثرة من يصدق الخرافات ، ويسلم كل مايعزى الى الاموات ، تقليدا للآباء والامهات ، ومواتاة للاتراب واللدات ، ويحسبون هذا اتباعا لهم ، ويعدون أهله من أشياعهم ، فيفتنون بكثرتهم ، ويهونون أمر المصلحين لقلتهم ، وقلة من يهتدي بهم ، ولو فكروا وقدروا ، وتدبروا واعتبروا ، لرأوا ان هذه القلة هي محل الرجاء ، وتلك الكثرة كالغثاء أو الهباء ، وانها تتفلت كل يوم من أيديهم كما تتفلت الابل من عقالها ، بل من جامعة الاسلام التي عرفوا اسمها وجهلوا حدها وفصلها ، فكثرة أشياع الخرافات الى قلة ، وقلة حزب المصلحين الى كثرة ، وقد فطن هرقل ملك الروم ، لهذا الامر الذي جهله المغرورون ، فسأل عن أتباع النبي (ص) أيزيدون أم ينقصون ، فلما علم انهم على قلتهم في ازدياد ، وان من دخل فيهم لا يخرج منهم ، علم انهم حزب الله الغالبون

ولو رجع أولئك الدجالون البصر ، وكرروا التأمل والنظر ، لرأوا أن هؤلاء العوام ، الذين لم تبلغهم حقيقة دعوة الاصلاح ، أو صدهم عن

النظر فيها سدنة القبور المعبودة وتجار الولاية والصلاح، هم الذين يتسللون يوما بعد يوم مما يسمى الاسلام التقليدي، ولا يهتدون السبيل الى حقيقة الاسلام البرهاني، فأكثرهم يفتنون بالشبهات المادية، التي يبثها فيهم حملة قشور العلوم العصرية، ومنهم من يشكون في الاسلام بمطاعن دعاة النصرانية، فما بال زعماء الدجل والخرافات، لا يتصدون للرد على تلك الشبهات، وأنى لهم الرد عليها وهم لا يعرفون مواردها ومصادرها، ولا يقفون على شيء من العلوم المتولدة هي منها، ولا يميزون بين أصول الاسلام التي يجب الدفاع عنها، والخرافات والاوهام الملصقة بها، وانما قصارى ما عندهم ان يقولوا للعوام ان جميع العلوم الطبيعية باطلة، وان تعلمها كفر وتعليمها زندقة، ويريدون ان يتلقى الناس قولهم هذا بالقبول والتسليم، كما يوجبون عليهم قبول جميع ما يقولون انه من الدين، على انهم يعظمون الحكام والاغنياء المتعلمين لتلك العلوم، فهل يرضى أحد بأن يكون من هؤلاء في مكان التقليد من الامام المعصوم، ؟ كلا إننا نرى كثيرا من المتعلمين في المدارس العصرية، يعدون خرافات أمثال هؤلاء الدجالين حجة على جميع العلوم الاسلامية. فهم لذلك يصدون عنها، ويعدّون من إضاعة الوقت النظر في شيء منها.

يزعم هؤلاء الدجالون ان الضلال كل الضلال هو ما يدعو اليه المصلحون من هدي الكتاب والسنة، على النحو الذي كان عليه الصدر الأول من الأمة، ونبذ كل ما استحدثه الخلف، مخالفا لما كان عليه السلف، عملا بقوله (ص) « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » رواه الشيخان وابو داود وابن ماجه من حديث عائشة. وقد جعلوا همهم الطعن

في دعاة هذا الاصلاح، ورميهم بحجارة الزور والبهتان ، وأكبر شبهتهم ان هذا من الاجتهاد ، الذي انقطع فضل الله به عن العباد ، وان كتاب الله الذي أنزله هدى للعالمين، ووصفه بالتبيان والمبين ، لم يتبين معناه الا للأفراد الافلين ، الذين وصفوا بالأئمة المجتهدين ، حتى انهم لو لم يوجدوا لما أمكن لأحد ان يكون من المسلمين ، وان سنة الرسول (ص) لاتكفي في بيان كتاب الله من دون علمهم، وان قال الله تعالى (١٦ : ٤٤ وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) ! ! فان لم يكن قد بينه كما أمر الله ، فكيف يكون قد بلغ رسالة الله ؟ وهل يعقل ان يكون عجز عن ذلك وقدر عليه سواه ؟ معاذ الله وحاش لله .

ألا إن هؤلاء ليسوا من أهل البصيرة والاستدلال، فنجذبهم بالحجة أو ندمغهم بالبرهان ، وانما نريد بمثل هذا الكلام، ان نذكر من لهم نصيب من الاستقلال ، بأن مقلدة أمثال هؤلاء المساكين ، كلهم عرضة للمروق من الدين ، وأنهم لو كانوا يغارون عليهم وعلى دينهم لجعلوا همهم في وقايتهم من الكفر والإلحاد ، لا في وقايتهم من هدي السنة وهدى القرآن ، وحصروا عنايتهم في كشف الشبهات التي تخرجهم من حظيرة الاسلام، لا في نشر الخرافات التي تحصرهم في زريبة الاوهام، ولكن يظهر ان ترك الاسلام ألبتة ، أهون عليهم من ترك التقليد الاعمى الى هداية الكتاب والسنة، ولذلك نراهم يدهنون المارقين من أصحاب المال والجاه، ويثنون عليهم بالالسنة والاقلام ، ولا نظهر غيرتهم على الدين، إلا في تضليل حماة الدين، ونحمده تعالى أن خذلهم وكبتهم ، وصرف قلوب الناس عما تزوّر أقلامهم وتفتري ألسنتهم، هذا وإن الاسلام ليشكو اليوم من شيطان الافساد السياسي ، مالا

يشكو من شيطان الإفساد الديني ، فقد غلب على مقام أولي الامر ، زعنفة من عبدة الطاغوت والشر ، جعلوا المعروف منكراً والمنكر معروفا ، وأرهقوا الامة قتلاً وحبساً ومصادرةً وتخويفاً ، يأكلون تراث الامة أكلا لما ، ويحبون المال حباً جماً ، اذا دعوتهم الى الحق ولوا منك فراراً ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، وقد مكروا بأناس استخدموهم لغش المسلمين مكراً كبارا ، فاتبعوا من لم يزده ماله وجاهه الا خسارا ، وكان من كيدهم ومكرهم ، وعند الله عاقبة مكرهم ، أنهم وقد عجزوا عن إسكات حركة الاصلاح ، وإسكات نداء دعاته حيّ على الفلاح ، أرادوا إفساد أمرها ، بتوسيدها الى غير أهلها ، من المنافقين المتزلفين اليهم ، الراضين ان يكونوا آلات في أيديهم ، فصروا هؤلاء على أبناء بجدتها ، وآباء عذرتها ، كما وسدت صروف الزمان اليهم من الامر ، ما ليسوا له بأهل ، فدنت بذلك ساعة الأمة ، وقد جاء اشراطها ولا تلبث أن تأتي بغتة ، قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم « اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظروا الساعة » رواه البخاري في صحيحه .

هذا هو السر في تناقض بعض الصحف التي ظهرت بعد ظهور الفئة الباغية ، والجمعية الطاغية ، الاسلامية في الظاهر ، الاتحادية في الباطن ، إذ تمدح الاسلام وتنفر عن الاعمال التي تحبه وتطعن في القائمين بها ، وتدعو الى الجامعة الاسلامية وتلقي الشقاق بين العاملين لها ، ويزاحم أهلها المصلحين ، وهم أعوان المفسدين ، ومنهم من تخدع رؤيته ، وتفتن خلابته ، ويغر بكاؤه أو تباكيه ، والمنافق يملك عينيه فيبكي بهما متى شاء

فكم أذري الدموع لنهب مال وكم أبدي الخشوع لنيل جاه

ومنهم من لم علم المغرورون بورقته، حقيقة حاله في علمه وعمله وعقيدته، ولوا منه فرارا، وأعرضوا ازورارا، واستصغروا أنفسهم استصغارا، لتجعلهم باتباع كل ناعق، وعدم التمييل بين الصادق والمنافق، وستظهر للجميع الحقائق، فجبل الكذب وان طال قصير، ومصير المنافقين شر مصير. وانما نخشى ان لا تظهر العبرة، الا بعد خراب البصرة، وأن يأخذ الله المسلمين كافة، بما جنته تلك الفئة الباغية (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً)

ذلك بان الامة تحتاج الى ضروب من الاصلاح يمد بعضها بعضاً وأصولها خمسة الديني والعلمي والاجتماعي والسياسي والمالي، وقد تداعت هذه الاصول كلها في العالم الاسلامي، ولا يسهل اقامة بعضها، الا باقامة باقيها، لهذا أردنا عند ما لاحت لنا من الاستانة بارقة الامل في الاصلاح السياسي، أن ننشئ فيها عملا كبيرا من الاصلاح الديني والعلمي، الذي هو أكبر عون على غيره ولا سيما الاصلاح الاجتماعي، فعلمنا أن ما لاح لنا كان برقا خلبا، وسرابا بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً، بل تبين لنا أن مثل ذلك البلاء النازل، الذي تراءى بصورة الاصلاح الخادع، كمثل ذلك العذاب الذي نزل بصورة العارض، (٤٦: ٢٤ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم ٢٥ تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم، كذلك نجزي القوم المجرمين).

أجل ان هذا العذاب، ليمثل ذلك الانقلاب، الذي حسبنا ان وراءه ما نرجو من الاصلاح، فكان بسوء تصرف ذويه عين الافساد، وقد

أنذرنا الامة سوء عاقبته ، وخطر مغبته ، فماروا بالنذر :(٥٤ ٣٠ وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (٤) ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر (٥) حكمة بالغة فما تغني النذر) وقد هزم الجمع وولوا الدبر ، فبأي القول والفعل بعد ذلك يعتبر ، فان لم يتدارك الامر أهل البصيرة والنظر ، فلا منجاة بعد ذلك ولا مفر (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) لا أريد الاشارة الى قيامة الناس كافة ، بل أريد قيامة هذه الامة خاصة ، فاذا هي فقدت هذا الرمق من استقلالها ، وزال هذا الذماء الذي تتردد به أنفاسها ، فأي نوع تملكه بعده من أنواع اصلاحها ؟

فليس الخطر الذي نخشاه اليوم على الاسلام ، هو كيد المفسدين لدعاة الاصلاح ، باغراء غير أهله بالدعوة اليه ، لمعارضة المضطلعين بالقيام به ، واستئجارهم المنافقين ، وتأييدهم على الصادقين ، مع عدم تمييز الاكثرين ، بين المحقين والمبطلين ، ولا نحو ذلك من أعمال هؤلاء الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، وانما الخطر الاكبر هو إفسادهم السياسي الذي فتح علينا باب المسألة الشرقية ، فبدأ بملكة طرابلس الغرب الأفريقية ، وثنى بولايات الدولة الأوربية ، ويخشى ان يثلث بالولايات الاسيوية ، ولا ينفعنا يومئذ ظهور صدقنا وكذبهم ، ونصحنا وغشهم ، لأن الامر يخرج من أيدينا وأيديهم ، الى من لا يرحمنا ولا يرجهم ، على ان زعماء هذه الفتنة ، ومبسلي هذه الامة ، لا حظ لهم من الحياة الا الجاه والمال ، فاذا فاتهم الاول بفقد الاستقلال ، فان لهم من الآخر ما يمتعهم بسائر اللذات ، ولم يدر هذا الخطر مقاومة أهل الاخلاص لهم ، وانتزاعهم تلك المقاليد من أيديهم ، على انه لا يبعد أن تعود اليهم ، فتكون الكرة

الثانية ، هي الطامة القاضية ، ولا يدرؤها من بعد ، مثل ما كان من قبل ، وانما يرجى ان يبدأ البدار الى تقوية كل قطر من الملكة في نفسه ، وتوطيد الدفاع عنه وإقامة العمران فيه بأهله ، وهو ما يعبرون عنه بالمدافعة المالية ، والادارة اللامركزية ، ثم بناء المصلحة العامة على قواعد الصدق والاخلاص ، فاذا لم تتفق الامة والدولة على هذا فعلى الامة والدولة السلام .

(الدعوة الى انتقاد المنار)

ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض في الاسلام هو سياجه وحفاظه ان تتعدى حدوده بين أهله ، كما ان الجهاد سياجه وحفاظه أن يعتدي عليه غير أهله ، وقد قصر المسلمون في الفريضتين فكان عاقبة أمرهم ما نسمع ونرى ونذوق ، فالمنار يدعو كل من يطلع عليه ويرى فيه خطأ أن يبينه لنا بالمشافهة ان كان ممن يقابلنا ويلقاه ، والا فبالكتابة . والطريقة المثلى في ذلك أن يقال ان في صفحة كذا من جزء كذا خطأ . ويبين ذلك الخطأ وصوابه بالدليل ، من غير استطراد ولا تطويل ، ونحن نرجع الى الصواب ان ظهر لنا ، أو نبين ما عندنا في المسألة .

هذه هي طريقة الامر والنهي ، والتواصي بالحق والصبر ، لا ما يذهب اليه أهل الاهواء الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا . وهو أنهم اذا رأوا أو سمعوا — ولو كذبا — أن أخاهم أخطأ في شيء ، أشاعوا ذلك بين الناس بالقول والكتابة فيدري بذلك الخطأ من يقوته دونه ، وربما كان ذلك منكرا أو شبهة على الدين تعلق في نفس المستمع ولا يدري كيف يتفصى منها . وكثيرا ما يكون هم المخطئين . ومنهم من يصدق عليهم قول الشاعر :

إن يسمعوا الخير اخفوه وإن سمعوا شرا أذاعوا وان لم يسمعوا كذبوا

فمن ابتلي من أهل التقوى والاخلاص ، من هؤلاء الذين يوسوسون في صدور الناس يذم أو يعيب أو يطعن ، من يدعي عليه انه اخطأ ، فليقل له ان هذه غيبة يفسق صاحبها ، لا نصيحة يتبع قائلها ، فان كان فلان أخطأ فذكره بينك وبينه فان لم يرجع فهو شيطان ، فأعرض عنه وقل سلام

محمد رشيد رضا المصري